العربية بين الجمود والتطور والتوليد

دراسة في اللغة والاسلوب

الدكتور ابراهيم السامرائي

المدرس في قسم اللغة العربية

ان اللغة وثيقة الصلة بالانسان وبيئته ، فهي تظهر المجتمع الانساني على حقيقته . وقد بحث موضوع اللغة العلماء المختصون في العصور الحديثة ، كما بحثه الاقدمون فكتبوا فيه على طريقتهم ، على أن نفراً غير قليل من غير ذوي الاختصاص في اللغة قد مروا بالموضوع نفسه في خلال دراساتهم ، ومن هؤلاء ، ذوو علم الاجتماع ، والمهتمون بعلم النفس ، والقائلون بالفلسفة . وللموضوع جوانب كثيرة وأبواب متعددة ، فاللغة أساس كل أنواع النشاط الثقافي ، « وهي بذلك خير دليل يهتدي به الباحث الى معالم أي من المجتمعات الحديثة[1] » . ففي كل مجتمع ، مهما كانت طبيعته وسعته ، تشغل اللغة مكانا ذا أهمية أساسية ، اذ هي أقوى الروابط بين أعضاء هذا المجتمع ، وهي في الوقت نفسه رمز الى حياتهم المشتركة وضمان لها .

فما الاداة التي يمكن أن تكون أكثر كفاية من اللغة في تأكيد خصائص الجماعة ؟ فهي في مرانتها ، ويسرها ، وامتلائها بالظلال الدقيقة للمعاني تصلح لاستعمالات متشعبة وتقف موقف الرابطة التي توحد أعضاء الجماعة ، فتكون العلامة التي بها يعرفون والنسب الذي اليه ينتسبون[2] .

وليست اللغة رابطة بين أعضاء مجتمع واحد بعينه ، وانما هي عامل مهم للترابط بين جيل وجيل ، وانتقال الثقافات عبر الاعصار لا يتأتى الا

---

(1) Block and Tauger. Outline of Linguistic Analysis, P. 5.
(2) J. Vendryes, Language, P. 240.

بهذه الوسيلة العجيبة • ومن أجل هـذا كان من السهل على الباحثين أن يكتبوا تاريخا واضحا لـكثير من اللغـات الحديثة ، بادئين بأقدم صورة للغة ، متعقبين التطور التأريخى لها ، ولذلك استطعنا أن نقف اليوم على البحوث القيمة فى هذا الموضوع •

غير أن لغتنا العربية افتقرت الى هذا النوع من البحث ، وربما كان هذا الافتقار طبيعيا ، ذلك ان العربية تفتقر الى الحلقات الاولى من تاريخها ، اذ ليس لدينا نصوص وافية تشير الى تلك المراحل التأريخية • ان الشعر الجاهلى ، أو قل الادب الجاهلى عامة لا يمكن اعتباره مادة اولى تمثل طفولة العربية ، فهى لا تختلف كثيرا عن اللغـة فى العصور الاسلامية ، ونحن نفترض أن يكون فى اللغة العربية مواد قد ضاعت أو اننا لم نعثر بها ، ولم يحدث للغة العربية ما حدث للغات السامية الاخرى ، فالتنقيب العلمى الحديث دل على مواد كثيرة فى اللغات الاكدية والآشورية والعبرية والآرامية والحبشية افادت البحث اللغوى كثيرا ودلت على امكان القيام بوضع تاريخ محكم الحلقات فى هذه اللغات •

اما البحث التنقيبى الذى قام به العلماء الاوربيون وغير الاوربيين فى أنحاء معينة فى شبه الجزيرة وفى اليمن ، واهتداؤهم الى حل الرموز كما فى المعينية[١] والسبئية[٢] والنقوش التى نسبت الى الصفاة فى بلاد الشام وسميت بالنقوش الصفوية ، وكذلك النقوش اللحيانية[٣] والثمودية[٤] ، فلا يمكن اعتبـاره مشيراً الى الحلقات الاولى المفقودة فى العربية ، والتى سبقت الادب الجاهلى ، ذلك أن بينها وبين النصوص الجاهلية فرقا عظيما ، فهذه المواد اللغوية التى دلت عليها النقوش المـكتشفة تؤلف لهجات أو لغات سامية تقرب من العربية المعروفة •

---

(١) خليل يحيى نامى ، نقوش خربة معين القاهرة ١٩٥٢ •
(٢) اغناطيوس گويدى ، المختصر فى علم اللغة العربية الجنوبيـة القديمة •
(3) Werner Caskel, Lihyan Und Lihyanish.
(4) Jaussen et Savignoe, Mission archéologique en Arabie.

على أن علماء العربية لم يتقيدوا بالاستعمال وتطور هذا الاستعمال فى اللغة ، فقد رسموا لانفسهم صورة للغة لا يحيدون عنها ، وحملوا بذلك ما خالف هذا المرسوم المتفق عليه على الخطأ واللحن ومجاوزة الصحيح • وقصة ابن ابى اسحق الحضرمى النحوى مع الفرزدق الشاعر دليل على هذا فقد قال الفرزدق فى قصيدة له :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المـــال الا مسحتاً او مجلف

فقال النحوى : على اى شىء ترفع « مجلف » ، فقال الفرزدق : على ما يسوؤل وينوؤك[1] • وليس الحضرمى بدعاً بين اللغويين ، فقد ذكر ابو حاتم السجستانى : سألت الاصمعى : أتقول فى التهديد (ابرق وأرعد) قال : لا ، لست اقول ذلك الا أنى ارى البرق واسمع الرعد ، قلت قال قال الشاعر الـكميت :

أبرق وأرعد يا يزيد فما وعيدك لى بضـائر

قال : الـكميت جرمقانى من أهـل الموصـل ليس بحجة ، ولـكن الحجة هو الذى يقول :

اذا جاوزت من ذات عرق ثنيـةً فقل لأبى قابوس ما شئت فارعدِ

وهو شاعر جاهلى ، وشاعرك هذا متأخر لا يؤخذ بقوله • قال ابو حاتم : فأتيت أبا زيد الانصارى ، وقلت له : كيف تقول من البرق والرعد : فعلت السماء ؟ قال : رعدت وبرقت ، قلت فمن التهديد ؟ قال : رعد وبرق ، وأرعد وأبرق ، فأجاز اللغتين ، ثم سألت اعرابياً فصيحاً فأجاز اللغتين ولم يجز الاصمعى الا لغة واحدة •[2]

وكان الاصمعى ينكر كلمة « زوجة » ويقول « زوج » ويحتج بقوله تعالى « أمسك عليك زوجك »[3] فقيل ، له : ان الشاعر ذو الرمة يقول :

---

(١) ابن الانبارى ، نزهة الالباء ٢٤ •
(٢) أبو علي القالى ، الامالى ١/٩ •
(٣) سورة الاحزاب ٣٣ •

أذو زوجة بالمصر ام ذو خصومة أراك لها فى البصرة اليوم ثاويا

فقال ذو الرمة ليس بحجة ، اذ طالما أكل البقل والمالح فى حوانيت البقالين .[1]

وقد عرف عن الاصمعى هذا التشدد والحرج فهو يأبى كلمة خالفت لغة التنزيل ، وهو من أجل هذا لم يرض لنفسه ان يبحث فى لغة التنزيل على نحو ما فعل أبو عبيدة[2] وابن قتيبة[3] مثلا . ويقول ابن جني : كان الاصمعى ليس ممن ينشط للمقاييس وأنه معروف بقلة انبعاثه فى النظر وتوفره على ما يرى ويحفظ[4] . وابن جنى من علماء القرن الرابع الهجرى وهو العصر الذى لم يمنع ما قيس على كلام العرب أن يكون من كلام العرب[5] .

ومن علوم اللغة فى العصور الحديثة« علم معانى الاسماء » أو « علم الدلالة » ويراد به دلالة اللفظ ونشأته واستعماله ، ومجال هذا الاستعمال ، وتطور الدلالة بتطور الزمن ، وأسباب هذا التطور وعوامله ، وأول من قام بدراسة تعرض الى هذا الموضوع هو الفرنسى Michel Bréal وسمى دراسته Essai de Sémantique سنة ١٨٩٧ ، وخلص فى بحثه الى قواعد عامة فى الدلالة وتطور المعنى معتمدا على اللغات القديمة التى تنمى الى اسرة واحدة كاليونانية واللاتينية والسنسكريتية . وفى سنة ١٩٣٢ كتب العالمان I. A. Richards, C. K. Ogden كتابهما The Meaning of Meaning، وقد عرضا فيه لمسألة الدلالة عرضاً شاملا معتمدين على علم الاجتماع والنظم الاجتماعية وفى ضوء مباحث علم النفس الحديث كمسائل العاطفة والانفعال والشعور .

---

(١) السيوطى المزهر ١/٢١٤ .
(٢) مجاز القرآن لابى عبيدة .
(٣) تأويل مشكل القرآن لابى قتيبة .
(٤) ابن جني ، الخصائص ١/٣٦٦ .
(٥) المصدر السابق ٣٦٢ .

وقد غزا هذا الموضوع اصناف عدة من ذوى الاختصاص فى السنين الاخيرة ، فيهم عالم الطبيعة ورجال القانون وأصحاب علم النفس ورجال الفلسفة ، وقديما كانت اللغة باباً من أبواب الفلسفة ، ومن أجل هذا عرض الفلاسفة الأغريق لموضوع اللغة على أنها شيء من المنطق • ولم يتيسر بعد فى العربية شيء من بحث الدلالة على الطريقة المتبعة فى البحوث الحديثة •

ولم يعتمد الاقدمون الا على الرواية ، وحدث أن كان بين الرواة نفر لم يحجم عن الاصطناع والتزيد ، ولو عرفنا أن حديث رسول الله (ص) لم يسلم من الدس والتزيد ، لم ننكر أن يكون بين نقلة الاخبار الادبية واللغوية من لا يطمأن الى قوله ، ومن هو فاسد الذمة يصطنعها اصطناعا • غير أن الحديث قد نزه عن كثير من التزيد والزيف ، وطريقتهم فى ذلك اتباع علوم الحديث المعروفة ، واخضاع الحديث للجرح والتعديل كما يقولون ، وليس شيء من هذا كان قد اتبع فى تحري اللغة ، وان كان السيوطى قد ذهب الى أن : « علم الحديث واللغة أخوان يجريان من واد واحد »[1] •

ولكن علوم القرآن فرضت على المسلمين أن يعمدوا الى كتاب الله فيفسروه ويتعقبوا الفاظه ، وكانت الحاجة الى معرفة لغة القرآن وغريبه سبباً فى خوضهم فى بحث لغوية عن المعنى والدلالة • وابو عمرو بن العلاء احد علماء العربية الاولين كان يعتبر لغة القرآن ودراسة معانى الفاظ القرآن هدفا لكل مسلم • ومن أجل ذلك استعانوا بالشعر فى شرح وتفسير لغة القرآن ، ومن هؤلاء ابو عبيدة معمر بن المثنى فى « مجاز القرآن »[2] ، وقد اعتمد على هذا الكتاب ابن قتيبة فى كتابيه « المشكل » و « الغريب » ، وظل « مجاز ابى عبيدة » مادة لكثير ممن كتبوا فى الموضوع[3] • وقد انتهى البحث فى لغة القرآن الى القول بأن فيها كلمات « اعجمية الاصول عربية الالفاظ » والى هذا ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام الازدى المتوفى (سنة ٢٢٤هـ) ، غير ان ابا عبيدة ذهب غير هذا المذهب وقال : « اللفظ يوافق

(١) السيوطى ، المزهر ٢/٣١٢ •
(٢) ابو عبيدة ، مجاز القرآن •
(٣) أبو عبيدة ، أنظر مقدمة المحقق ١/١٧ •

اللفظ ويقاربه ومعناهما واحد »[1] . وقد تبعه على هذا المذهب الطبرى فى « تفسيره »[2] ، والثعالبى فى « فقه اللغة »[3] ، وعند هؤلاء أن ما جاء من أشكال يخيل الى الناظر اليها انها اعجمية هو من باب توافق اللغات . على أن ابا حاتم الرازى قد ذهب الى أن معانى الاسماء فى القرآن منها ما هو عربى عرفته العرب ، ومنها ما جاء فى القرآن ولم تكن العرب تعرفه ، ومنها ما جاء فى القرآن من الفاظ العجم[4] . وكان كتاب (الزينة) لابى حاتم مورداً لكثير من الباحثين فى الالفاظ الاسلامية ، على أن ابا حاتم لم يسلم من التعصب للعربية ، فقد ذكر فى كتابه كثيرا من المواد على انها عربية ، والتى دلّ البحث الحديث على أنها ليست عربية الاصل وسنعرض الى هذا ، ومن امثلة تعصبه أنه عقد فصلا فى « فضل لغة العرب » ذهب فيه الى أن العربية افصح اللغات واكملها واتمها واعذبها وابينها ... الخ . وقد جاء فيه : « وقال قوم بفضل اللغة اليونانية والهندية ، لان كتب الفلاسفة والاطباء وأصحاب النجوم والهندسة والحساب بها . وهذا قول منبوذ عند أهل الملل »[5] .

ولم يكن القول بعجمة لفظ من الفاظ العربية عند الاقدمين ، مبنيا على البحث والدرس ، أو قل ان القائلين بهذا ، على علم بلغات غير عربية من لغات الاعاجم ، وانما كانت أقوالهم مبنية على الظن والتوهم . وعندهم أن كل كلمة لم يشتهر فيها استعمال جاهلى دخيلة ، واذا كانت دخيلة فهى أن تكون عند أحدهم فارسية ، وعند آخر عبرانية أو سريانية أو حبشية ، ولم يهتدوا الى أن بين العربية والعبرانية والسريانية والحبشية ولغات أخرى علاقات تأريخية وقرابات لغوية مردها الاصول السامية الاولى التى دل عليها البحث الحديث . وربما عزوا كلمات دخيلة الى العربية وأخضعوها لقوانين الاشتقاق فى العربية كما سنرى .

---

(١) المصدر السابق ١/١٧ .
(٢) الطبرى ، التفسير ٦/٦ .
(٣) الثعالبى ، فقه اللغة ٣١٥ .
(٤) ابو حاتم ، الزينة ١/١٩ .
(٥) ابو حاتم الزينة ١/٦٠ ـ ٣٦ .

فكلمة « تسنيم » فى قوله تعالى : « ومزاجه من تسنيم »[1] عند الاقدمين من الفاظ القرآن وهى من الكلمات العربية والمعروفة فى لسان العرب ولكنها فى لغة القرآن دلت على معنى لم يعرفه العرب ، وقد زعموا أن « التسنيم » عين فى الجنة • وقال الزجاج النحوى فى قوله تعالى : « ومزاجه من تسنيم » أى مزاجه من ماء متسنم عيناً تأتيهم من علو »[2] • واعتبر المستشرق « نولدكه » ان « التسنيم » من الكلمات التى جاء بها القرآن لعدم وجود اصل لها فى الشعر الجاهلى ولا فى اللغات السامية القديمة[3] • فالزجاج النحوى أخضع هذه الكلمة لقوانين الاشتقاق فى العربية فاشتق منها فعلا وكأنها من مألوف العربية وهذه من قدرتهم أو قل قدرة العربية على التوليد •

وكلمة « سجيّن » فى قوله تعالى : « كلا ان كتاب الفجار لفى سجين »[4] عند اللغويين العرب على وزن « فعيّل » من السجين ، والسجين الصلب الشديد من كل شىء • وقد قالوا : وادٍ فى جنهم[5] • وقد ذكر السيوطى فى الاتقان[6] انه غير عربى ، نقلا عن « كتاب الزينة » على ان ابا حاتم فى « الزينة » جعله من الالفاظ التى استعملها القرآن استعمالا لم يعرفه العرب فى جاهليتهم • وهو من الفاظ القرآن •

وقد ذكروا « للرقيم » فى قوله تعالى : « ام حسبت أن اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا »[7] مدلولات عديدة لا تقوم الا على الظن والتوهم والوضع • قال الزجاجى فى الامالى : « اعلم أن فى الرقيم

---

(١) سورة المطففين ٢٧ •
(٢) اللسان مادة « سنم » •

(3) Th. Noeldeke, Noue Beitraege Zur semitischen sprachuissenschaft, Strassburg 1910.

(٤) سورة المطففين ٧ •
(٥) اللسان مادة « سجن » •
(٦) السيوطى ، الاتقان ١/١٣٩ •
(٧) سورة الكهف ٩ •

خمسة أقوال : احدها هذا الذى روى عن ابن عباس (رحمه الله) انه لوح كتب فيه اسماؤهم • والآخر انّ الرقيم هو الدواة ، ويروى ذلك عن « مجاهد » • وقال هو بلغة الروم • والثالث أن الرقيم القرية • والرابع ان الرقيم الوادى • والخامس ما روى عن الضحاك وقتادة أنهما قالا الرقيم الكتاب »[1] ، والى هذا ذهب اهل اللغة • ومادة « رقيم » من الالفاظ السامية التى وجدت فى كثير من اللغات السامية •[2]

وللقرآن استعمالات خاصة لالفاظ عربية استغربها الاقدمون ، وحاروا فيها فلم يفهم ابن عباس الصحابى المشهور معنى « الحنان » فى قوله تعالى : « وحناناً من لدنا »[3] ، روى عكرمة انه قال : والله ما ادرى ما الحنان •[4]

وقد جاء فى القرآن ألفاظ لها أصول سامية وجدت فى أغلب اللغات السامية ولكن الاقدمين وقفوا منها وقفة الجاهل بالاصول ، فقالوا أقوالا لم تبن على علم ثابت • ومن هذه كلمة « الطور » فى قوله تعالى : « وشجرة تخرج من طورسيناء »[5] ، وفى قوله تعالى : « والطور وكتاب مسطور »[6] ، فقد ذكر الجواليقى فى (المعرّب) : « قال ابن قتيبة : الطور الجبل بالسريانية »[7] • وقال الفراء : « وهو الجبل الذى بمدين الذى كلم الله تعالى موسى عليه السلام تكليماً »[8] • وقال ياقوت : قال بعض اهل اللغة : لا يسمى طورا حتى يكون ذا شجر ، ولا يقال للاجرد طور • ويقال لجميع بلاد الشام « الطور » • وبلسان النبط كل جبل يقال له طور ، فاذا كان عليه نبت وشجر ، طيل طور سيناء[9] • وقد استعملت الكلمة

---

(١) الزجاجى ، الامالى ٥ •

(2) Gesenius, Hebrew and English Lexicon.

(٣) سورة مريم ١٢ •

(٤) ابو حاتم ، الزينة ١/١٣٥ •

(٥) سورة « المؤمنون » ٢٣ •

(٦) سورة الطور ٥٢ •

(٧) الجواليقى ، المعرب ٢٢١ •

(٨) اللسان مادة طور •

(٩) ياقوت ، معجم البلدان « طور » •

فى « سفر الخروج » بمعنى طبقة من الحجارة[1] • اما فى سفر دانيال فقد جاءت بمعنى الجبل فى السريانية « طور رب »[2] ، أى جبل عظيم • والكلمة آرامية من الاصول السامية والتى احتفظت العربية بصورتها الآرامية ، أى بمجيئها بحرف الطاء ، لان المشهور أن « الطاء » فى الآرامية تقابل « الظاء » فى العربية وكان حقها أن تكون « ظور » كما تقول « نظر » فى العربية وهو فى السريانية « نطر » •

وقد خبطوا أيضا فى لفظ « اليم » فهى سريانية معربة[3] ، كما يذكر صاحب « المعرّب » • وما فطنوا الى أن الكلمة سامية الاصل وجدت فى اغلب اللغات السامية • ولم يستطيعوا أن يلمحوا ثروة العربية وغناها حين جاءت بالفعل من هذه المادة بعد ابدال الياء جيماً وهو (جم)[4] للدلالة على الكثرة مطلقاً •

ومن أمثلة هذه المواد السامية « الرَبّانيون ، والربّيون » وقد قالوا فيهما ما قالوا فى الامثلة التى سقناها • فقد ظن أبو عبيدة ان الربانيين غير عربية وانما هى عبرانية أو سريانية وجزم القاسم بن سلام بسريانيتها[5] •

وقد وجد فى العربية مواد دخيلة من أصول غير سامية ، ولكن العربية طبعتها بطابعها واستعملتها استعمالات كثيرة ، وربما عدّها جماعة من الاقدمين عربية فى الاصل ، فاخرجوا منها اشتقاقات تشير الى عروبيتها • ومن هذه : كلمة « الصراط » فى قوله تعالى : « اهدنا الصراط المستقيم »[6] فقد قالوا انها رومية ، وحملوا عليها القسطاس والفردوس[7] • والحقيقة ان « الصراط » من Strata اللاتينية ولعلها انتقلت الى العربية عن الآراميين

---

(١) سفر الخروج ١٧/٢٨ •
(٢) سفر دانيال ٢٥/٢ •
(٣) الجو اليقى ، المعرب ٢٥٥ •
(٤) انظم مادة « جم » فى تاريخ العروس للزبيدى •
(٥) السيوطى ، الاتقان ١٣٩/١ •
(٦) سورة الفاتحة ٥ •
(٧) ابو حاتم ، الزينة ٢١٥/٢ •

الذين اخذوها من اليونانية شأن غيرها من الالفاظ[1] • وقد توسعت العربية فى هذه المادة على رأى بعض الاقدمين ، فأشاروا الى العلاقة بين الصراط أو السراط (بالسين)[2] وسرط ، فالطريق سمى سراطاً لانه يسترط السابلة اذا سلكوه[3] • وقد استعمل الصراط فى العصور الاسلامية بمعنى الطريق مطلقا كما فى قول جرير :

أمير المؤمنين على صراط اذا اعوج الموارد مستقيم

ومثل الصراط ، القسطاس والفردوس وابليس والجن والبرج ، فهى الفاظ دخيلة استعملتها وأخذت منها مواد كثيرة • ومن جهل الاقدمين بالاصول اعتبارهم مادة « عدن » عربية فى قولهم « جنة عدن » ، أو فى استعمال القرآن : « وجنات عدن »[4] • قال الاصمعى : تقول العرب : عدنت الابل بمكان كذا وكذا ، اذا الفته ولزمته • ومنه قيل لمعدن الذهب والفضة : معدن لانه يثبت الناس فيه ولا يتحولون • وقال غيره : لان جوهر الذهب والفضة يثبت فيه[5] • وقال ابو عبيدة فى قوله تعالى : « جنات عدن » أى خلد ، يقال عَدَن فلان بمكان كذا وكذا أى أقام[6] •

وما عرف الاقدمون ان الكلمة وجدت فى العبرية[7] وفى غير العبرية من اللغات السامية ، وقد جاءت الكلمة فى سفر التكوين من العهد القديم فى هذا النص : « وغرس الرب الاله جنة فى عدن شرقا ، ووضع هناك آدم الذى جبله ، فكان عدن[8] •

---

(١) برجشترا سر ، التطور النحوى ١٥٤ •
(٢) جاء فى كتاب الزينة ٢/٢١٦ قال ابو عبيد : فى الصراط ثلاث لغات : صراط وسراط وزراط •
(٣) الزمخشرى ، الكشاف ١/١٥ ، وأنظر اللسان مادة « سرط » •
(٤) سورة التوبة ٩٣ •
(٥) ابو حاتم ، الزينة ٢/٢٠٠ •
(٦) أبو عبيدة ، المجاز ١/٢٠١ •
(٧) أنظر مادة « عدن » فى
Gesenius, Hebecew and English Lexieon
(٨) سفر التكوين ٢/٨ ـ ٩ •

وقد اضاف الاسلام للعربية مادة جديدة اصطلاحية تؤدى معانى جاء بها الاسلام • وجل هذه الالفاظ كلمات عربية اعطيت معانى جديدة والى هذا ذهب ابو حاتم احمد بن حمدان الرازى فى كتابه « الزينة » فهو بحث فى الكلمات الاسلامية •

وقد اضافت العصور الاسلامية المتعاقبة مادة كثيرة فى ميدان المصطلح الفنى معتمدين حيناً ، على الاصول العربية وآخذين بمبدأ التعريب حيناً آخر ، وربما توسعوا فأخذوا الكلمة الدخيلة مجرين عليها الطابع العربى •

ولما جاء العصر الحديث وجدت العربية نفسها فقيرة متخلفة لتخلف اهلها فى ميدان الثقافة والمعرفة ، ومن أجل هذا زخرت لغة اليوم بالاصطلاحات الجديدة التى دخلت فى العربية بواسطة الترجمة عن اللغات الاوربية ، فقولهم مثلا :

هو يمثل الرأى العام تجده فى الفرنسية فى قولهم :

Il represente l'opinion publique.

وهو فى الانكليزية He represents public opinion.

وقولهم يذرّ الرماد فى العيون ، نجده فى الفرنسية فى :

Il jette de la poudre auxyeux.

وهو فى الانكليزية فى قولهم :

To throw dust in the eye.

ونستطيع أن نحصى من هذه الاستعمالات عددا وافرا تزخر به لغة الصحف فى أيامنا هذه[1] •

وقد كثر التوليد فى العربية ، وأقصد بالمولد ما اخترع من الالفاظ لغرض من الاغراض ، ومن أمثلة هذا ما جاء فى شعر الصعاليك من الغريب مما اشار الى اصطناعه علماء العربية الاقدمين ، فقد شعر رواة شعر

---

(١) ارجع الى مقالاتنا فى المعلم الجديد « تعابير اوربية فى العربية الحديثة » الجزء الاول والثانى من المجلد الحادى والعشرين ، والجزء الاول والثانى من المجلد الثانى والعشرين ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ •

الصعاليك ، وفطن اللغويون الى أن فى شعر هؤلاء ، الفاظاً لا يعرفونها ولا يعرفها عامة العرب ، وقد قالوا بانها لم ترد الا فى هذه المواطن .

فالاصمعى لم يعرف « سحاليل » فى قول الاعلم يصف جراء الضباع

سود سحاليل كأن جلودهن ثياب راهب[1]

والمتعقب لاشعارهم يجد طائفة من الالفاظ الغريبة التى لا توجد فى مكان آخر .

قال تأبط شراً :

وحشحشت مشعوف النجاء كأمتى هَجَفٌ رأى قصرا سمالا وداجنا
من الحص هزروف كأن عفاءه اذا استدرج الفيفا ومد المغانيا
ازج زلوج هذرفىّ زفازف هِزَفٌ يبد الناجيات الصوافنا[2]

والشاعر الصعلوك قد يأتى بالكلام السهل المألوف ولكنه يدخل فى بعضه هذه المادة الغريبة فتطبعه بطابع خاص ، ومن هذا قول الشنفرى :

ولى دونكم اهلون سيد عملس وارقط زهلول وعرفاء جيأل
هم الاهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجانى بما جر يخذل[3]

فانت ترى السهولة والخفة فى البيت الثانى والغرابة والخشونة فى البيت الاول . وقد اعتمد اصحاب المعجمات على شعر الصعاليك فى تكوين مادتهم اللغوية لكثرة الغريب[4] .

ولعل خبر « القبعض » من المصطنع اللغوي عند اولئك المتندرين الذين قطعوا البيت :

ابا منذرٍ افنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر اهون من بعض

فسألوا المبرد النحوى الشهير : ما القبعض ؟ فقال : القطن ، وانشد :

كأن سنامها حشى القبعضا

---

(١) أنظر مادة « سحل » فى اللسان ، وديوان الهذليين القسم الثانى ٨٠ .
(٢) ابو الفرج ، الاغانى ١٨/٢١٣ .
(٣) القالى ، النوادر ٢٦٠ .
(٤) يوسف خليف ، شعراء الصعاليك ٣١١ .

وهو من تقطيعهم البيت الى تفاعيله ، فهناك تفعيلة « ق بعضنا » التى اجاب عنها المبرد بالقطن[1] .

وربما كان الخبر موضوعاً ، وهذا أمر لا يعنينا ، انما الذى يعنينا هو أنه يدل على أن شيئا من هذا قد وقع بحيث صارت العربية غنية بالالفاظ الموضوعة لمعنى واحد ، ومن هنا نشأت مشكلة الترادف فى العربية . وهى فى حقيقتها لا تعدو أن تكون اثرا من آثار الاصطناع وتوليد المعانى على هذه الطريقة .

ولقد جاء فى اخبار محمد بن عبدالواحد بن ابى هاشم ابى عمر الزاهد المعروف بغلام ثعلب ، أنه يولد الالفاظ على طريقة الاصطناع والوضع ، فقد قصده جماعة للاخذ عنه ، فتذاكروا فى طريقهم عند قنطرة هناك اكثاره وكذبه فقال أحدهم : أصحف له اسم هذه القنطرة واسأل عنه ، فانظروا ما يجيب ؟ فلما دخلوا عليه قال له : أيها الشيخ ما « الهَرْطَنق » عند العرب ؟ فقال : كذا وكذا فضحكوا وانصرفوا[2] .

وهذا الخبر وكثير على شاكلته ، يشير الى ان الرواة وعلماء اللغة أضافوا كثيرا من الالفاظ ولا سيما الغريب منها ، ودخل ما اضافوه فى اللغة والاستعمال . وهذا لون من ألوان التوليد ، وهو اختراع محض .

---

(١) ابن الأنبارى ، نزهة الالباء ١٥٠ .
(٢) القفطى ، انباه الرواة ١٢٧/٣ .